سينما | ملفّ

«كان 2024»: حضور عربي وتساؤلات

بين 14 و25 مايو/أيار 2024، تُقام الدورة الـ77 لمهرجان «كان» السينمائي الدولي، الذي يشهد تناقضات جمّة في اختياراته من الأفلام وأعضاء لجان التحكيم، في مقابل برامج تستعيد نتاجاً ماضياً بات من أبرز سمات الفن السابع في تاريخه، بينما تحضر السينما العربية في تظاهرات عدّة، وبعض الأسماء العربية، كالمغربية أسماء المُدير واللبنانية نادين لبكي، تشارك في هذا الاحتفال العالمي ببعض أحدث الإنتاجات متنوّعة الجنسية والأسلوب والمسائل، إضافة إلى تكريم الأميركيين الممثلة ميريل ستريب، والمخرج والمنتج جورج لوكاس، وغيرهما

عن أي سينما نتحدّث؟

أثار اختيار الأميركية، غريتا غِرويغ، رئيسة للجنة تحكيم المسابقة الرسمية في «كان» 2024 تساؤلات نقدية تتناول أحوال السينما في العالم

أشرف الحساني

قبل عام 2006، لم يكن أحدٌ يعرف ممثلة سينمائية أميركية تُدعى غريتا غِرويغ. ممثلة لم تستطع لفت انتباه يُذكَر، رغم أدائها دور البطولة في أعمال عدّة. جمالها لم يفتح لها أفقاً في الأداء، إذْ تبدو في أكثر من فيلم جامدة وغير مُحرّكة أفكاراً وأهواء ومشاعر. لكنّ هذا لا يرتبط بها حصراً، إذْ يمتد إلى وجوهٍ نسائيّة كثيرة، تعتقد أنّ الجمال وحده سينقذ السينما. والأخيرة لا ترتبط بصناعة نجوم مزيّفين، يعانون هشاشة أداء وإبداع وابتكار، بل لأنّ الفن السابع مُركّبٌ، يستطيع فيه ممثل أنْ يُعبّر في مشهدٍ وأداءٍ مُذهل عن قضية أو رأي سياسي معيّن. لكنْ، هناك نساء في هوليوود استطعن التعامل بذكاء مع جمالهنّ الطبيعي، محوّلين الجمال إلى طاقة تعبيرية لا تنضب، كأنجلينا جولي وجوليا روبرتس.

في كلّ فيلم لها، تبقى غِرويغ (1983) على حالها، لا تتغيّر. صورة فتاة جميلة شقراء، تُطاردها فتاة موضة يستغلّها مخرجون عديدون في أداء مشاهد بلاستيكية، غير مُقنعة بأدائها. عام 2017، تتحوّل إلى الإخراج، مع Lady Bird. ورغم ما حقّقه من نجاح جماهيري، لم يكن تأثيره قوياً في النقّاد، إذْ لا يُذكر في تجربتها، ولا يُعترف بها مخرجة سينمائية واعدة.

هذا، بغضّ النظر عن الاعتراف بسيناها، الهشّة والمتصدّعة والترفيهية، لكونها مبنية على منطق تجاري يحول دون تحقيق أي نهضة بصريّة. رغبة تطوير مهاراتها في الأداء غير موجودة، وقدراتها الإخراجية متواضعة، لا تُقدّم جديداً. هذا مطبّ وجوه سينمائية كثيرة، انتقلت من التمثيل إلى الإخراج، من دون تفكيرٍ في البحث عن جماليّات جديدة، تُظلّل بها سيرتها الإبداعية.

الرغبة في التجديد لا تتحقّق بمعزلٍ عن التفكير، وألا يخضع كلّ شيءٍ للأهواء والمَشاعر، كحال السينما العالمية اليوم. أفلامٌ كثيرة متصدّعة وغير مقنعة، أداءً وكتابة وتصويراً وإخراجاً. أفلام «فاست فود»، تُنجز في الاستديو بمقادير بصريّة مُنتهية الصلاحية، كأنْ تُعيد صورة وكلاماً مُعتّقاً. هذا لا يُطيقه نقّاد يعشقون سينما المؤلّف، ويراهنون عليها، لكونها مدخلاً إلى سينما حقيقية، تنصت لقصص، وتسعى إلى إحساس بنبض.

والمؤسّسات الإنتاجية تُراهن على هذا النوع من السينما الترفيهية، التي تُحقّق ملاذاً آمناً لها، تحتمي به من سخط الواقع السياسي، وهشاشة الوضع الاجتماعي، والأزمات المتكرّرة التي تُصيب اقتصادها.

اختيار غريتا غِرويغ رئيسة للجنة تحكيم المسابقة الرسمية للدورة الـ77 (14 . 25 مايو/أيار 2024) لمهرجان «كان» السينمائي إعلانٌ حقيقي وصادق عن مفهوم السينما وواقعها. لم يعُد للغرب ما يُقدّم سينمائياً للمُشاهد، فغالبية الأفلام الجديدة تُعبّر عن منطلق يطبع الفنّ السابع، وطيف أضحى في نظر الأنظمة والدول والمؤسسات فناً ترفيهياً يخدم الجوانب الخارجية للبلد، من دون طرح أسئلة حقيقية. ركاكة أفلام هوليوودية جديدة تتحكّم في أغلبها عوامل ذات صلة بمفهوم الإنتاج، وما يفرضه من طريقة معيّنة في تمثّل السينما. تمثّل سطحي بمعظمه، يخدم التجاري ومداخيل الصالات وتطلّعات الجمهور، لا السينما نفسها كفنّ بصري يقترح نمط تفكير حرّ، يرتبط بالواقع وتحوّلاته. غِرويغ غير معنيّة برأي كهذا. لكنّ إدارة مهرجان «كان» تُمثّل ما تصبو إليه سينما اليوم. النجاح الكبير لفيلمها الأخير «باربي» (2023)، الذي حقّق ملياراً و445 مليوناً و638 ألفاً و421 دولاراً أميركياً إيرادات دولية، أعطاها شرعية دخول إلى مهرجان «كان». المخيف أنْ يتحوّل كلّ نجاح تجاري إلى تجاوز واختراق مهرجان تاريخي مثل «كان»، له وقعه وأثره في ذاكرة ناقد ومُشاهد، وعشّاق السينما. ما مصداقية المهرجان بعد اليوم؟ عن أي نوع من السينما نتحدّث؟ هل يتعلّق الأمر بهشاشة عالم يزداد تواضعاً وقبحاً وارتباكاً يومياً؟ أم أنّنا أمام تحوّل جديد، يجعل السينما أكثر شعبية وترفيهية من الفنون المعاصرة؟ السينما ليست بخير. هناك تحوّل كبير ينبغي نقده والمُساهمة دائماً في إغناء النقاش فيه، المتمثّل في انسحاب وتراجع «السينما المستقلّة»، بعد أنْ باتت مؤسّسات فنية تحرص دائماً على إنتاج أفلام ترفيهية، ودعم سيناريوهات استهلاكية، لا تُقدّم جديداً في النظرية السينمائية، ولا تفتح لها أفقاً مغايراً في التخييل. والمرء بات يجد نفسه أمام أفلام كثيرة مرتبكة وغير قادرة على تحقيق أبسط شروط المشاهدة.

> المخيف أن يتحوّل كل نجاح تجاري إلى اختراق مهرجان تاريخي مثل «كان»

في كلّ عام تقريباً، هناك مفاجآت في مهرجانات عدّة، كبرلين و«كان» وفينيسيا، لكنّها تصطدم بأفلام معطوبة، وتندهش أحياناً بفوز فيلم منها. ورغم أنّ هذه الأحداث، التي تبدو في ظاهرها عادية وعابرة، تكون عميقة النظر، وتستحقّ التفكير والتأمّل لمساهمتها في تغيير مفهوم السينما، المرتكزة على النظر لصالح سينما تجري وراء صيحاتٍ عابرة، وربح آنيّ، تُؤجّج مداخيله جماهير هلاميّة متعطّشة لسينما «باربي» و«باتمان» وغيرهما.

غريتا «باربي» غِرويغ: ماذا يحصل في «كان» والسينما؟ (جو ماهر/Getty)

المغرب في المهرجان حضور متواتر وتقاطعات بين جيلين

سعيد المزواري

مخرجان مغربيان يحضران في الدورة الـ77 (14 . 25 مايو/أيار 2024) لمهرجان «كانّ» السينمائي: أوّلهما نبيل عيوش، مع فيلمه الجديد «الكل يحب تودا»، في فئة «كانّ بروميير»، الذي تؤدّي فيه نسرين الراضي دور امرأة تحلم بشيءٍ واحد فقط: أنْ تصبح «شيخة»، تؤدّي عروضها كلّ مساء في حانات بلدتها الريفية الصغيرة، على أمل ضمان مستقبل أفضل لها ولابنها. لكنْ، بعد تعرّضها لسوء معاملة وإذلال، تقرّر ترك كلّ شيءٍ من أجل أضواء الدار البيضاء. ملخّصٌ كهذا حمّال أوجه، يصعب الحكم عليه انطلاقاً منه: هل ينتمي الفيلم إلى سياق أفلام عيوش المعتَمِدة على اختيارات إخراج قوية، وأبعاد إنسانية مؤثّرة، كـ«مكتوب» (1997) و«علي زاوا» (2000)؛ أمْ إلى أفلامٍ تطغى فيها مقاربة الثيمة، ما يجعلها أقلّ شخصانية، كـ«غزية» (2017) و«علّي صوتك» (2021).

يحضر نبيل عيوش للمرّة الرابعة في مهرجان «كانّ»، بعد مشاركة أولى في قسم «نظرة ما»، في الدورة الـ65 (16 . 27 مايو/أيار 2012) مع «يا خيل الله»، الفائز بجائزة «فرانسوا شالييه»، المكرّسة لقيم الصحافة؛ ثم مع «الزين اللي فيك»، في «أسبوعا المخرجين»، في الدورة الـ68 (13 . 24 مايو/أيار 2015). هذه محطّة نتجت منها قضية رأي عام في المغرب، لا تزال تلقي آثارها على التصوّر الجماعي لكل مشاركاته في المهرجانات الدولية، إذْ أثارت صخباً إعلامياً ومجتمعياً غير مسبوق في علاقة المغاربة بسينماهم، بعد تسرّب مقاطع من الفيلم تزامناً مع عرضه في «كانّ»، فانتشر على وسائل التواصل الاجتماعي سيلٌ لا ينتهي من التعليقات، جزءٌ كبير منها اتّهامات وتخوين وشتائم، وتهديدات بالقتل، بحقّ المخرج، وبحقّ الممثلة الرئيسية لبنى أبيضار، ما أدّى إلى منع عروضه التجارية المحلية. المخرج الآخر يُدعى سعيد حميش بن العربي، وثاني فيلم طويل له بعنوان «البحر البعيد»، في «أسبوع النقّاد»، بعد «عودة إلى بولين» (2018)، اللافت للانتباه إلى موهبة واعدة بنضجها واستبصارها.

نبيل عيوش: 4 مرّات في «كانّ» رغم حملات ضده (كايت غرين/Getty)

في 67 دقيقة، يرسم بورتريهاً غنياً ومؤثراً، لفرنسي من أصل مغربي (برع في أدائه أنس الباز) يعود إلى بلدته القديمة، بعد فترة عمل في أبو ظبي، ليجدها صورة شبحية لما كانته في الماضي، إذْ ترزح في قبضة حزب مشبع بالأيديولوجيا اليمينية. كعيوش، يزاوج بن العربي بين الإخراج والإنتاج، فهو خرّيج قسم الإنتاج في «المدرسة الوطنية العليا لمهن الصورة والصوت» (باريس) المرموقة، لينتج عبر شركته «بارني برودَكشن» فيلمين مغربيين مهمّين العام الماضي: «الثلث الخالي» لفوزي بن السعيدي و«عصابات» لكمال الأزرق، وجديد عبد الله الطايع، المرتقب إطلاقه في الأشهر القليلة المقبلة: «كابو نيغرو».

عيوش وبن العربي وُلدا وترعرعا في فرنسا. اهتم الأول بهويته المغربية منذ أفلامه القصيرة الأولى، المشاركة في الدورة الخامسة (1995) لـ«لمهرجان الوطني للفيلم بطنجة»، عندما فُتحت أبواب المشاركة لمغاربة المهجر، فبرز جيل من المخرجين أثرى مسار السينما المغربية، كنور الدين لخماري وإسماعيل الفروخي. أمّا بن العربي فموزّع بين رافدي ثقافتيه الفرنسية والمغربية، كما يبرز في فيلمه القصير «الرحيل» (2004): يمضي عادل صيفاً استثنائياً في مغرب 2004، مع أصدقائه، بانتظار دورة الألعاب الأولمبية الأخيرة لممثله الأعلى العدّاء هشام الكروج. لكنّ وصول والده وشقيقه الأكبر من فرنسا، لتمضية أيام في المغرب يترك أثراً لا ينمحي في حياته. فيلمٌ مؤثّر، يُثير انطباعاً بمشاهدة فيلم طويل في ثوب فيلم قصير، ويصوّر الماضي برهافة ومسافة صائبة مع الأحاسيس رغم قوتها، خاصةً العلاقة حمّالة لأوجه بين عادل وأمه التي توحي باسترشاد قاسٍ وباكر بعيشة مهاجرون كثيرون. وهذا من دون سقوط في النوستالجيا السهلة. شارك «الرحيل» في نحو 100 مهرجان دولي، في نامور وروتردام وبالم سبرينغز، ونال 27 جائزة، وترشّح لـ«سيزار» الفرنسية (2022).

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

فيلمان عربيان في «أسبوع النقّاد» شابات يتمرّدن وهجرةٌ لخلاص

نديم جرجوره

في الدورة الـ77 (14 . 25 مايو/أيار 2024) لمهرجان «كانّ» السينمائي، تُقام النسخة الـ63 لتظاهرة «أسبوع النقّاد»، التي أسّستها «النقابة الفرنسية للنقد السينمائي وللأفلام التلفزيونية» عام 1962، إنْ تُعتمَد هذه الترجمة العربية للأصل الفرنسي، الذي يتضمّن مفردة تُترجم باثنتين عربيتين. فالأصل الفرنسي يقول إنّ التظاهرة، كما النقابة، تستخدم كلمة Critique De Cinema، المُترجمة عربياً إمّا إلى «النقد السينمائي» وإمّا إلى «الناقد السينمائي». لكنّ المتداول عربياً كامنٌ في «أسبوع النقّاد».

هذا يُضفي إيجابية على مهنةٍ غير مُقدَّرة في الصحافة والإعلام العربيّين، كما في مهرجانات سينمائية عربية عدّة، تُقام في مدن عربية وغربيّة. الاسم الرسمي السابق مختَلَفٌ: «الأسبوع الدولي للنقد/النقّاد». عام 2018، تُوقّع التظاهرةُ، مع مهرجان «كانّ» و«أسبوعا المخرجين» (الذي يُصبح اسمه «أسبوعا المخرجين والمخرجات»)، على «ميثاق التكافؤ والتنوّع في المهرجانات السينمائية، المدعومة من مجموعة 50/50». أي أنّها «تتعهّد بتوفير إحصاءات متعلّقة بالجنسين (ذكر وأنثى)، لا سيما بالنسبة إلى عدد الأفلام المُقدَّمة للاختيار»، وأيضاً التزام ما يؤدّي إلى «تحقيق التكافؤ الكامل». لكنْ، هناك سؤال مُكرَّر: هل تحصل المساواة في العدد على حساب النوع وآليات الاشتغال واستيفاء الشرط الإبداعي؟ الإجابة غير محسومة، والعروض المقبلة تكشف شيئاً منها.

التظاهرة هذه تُفتتح بـ«الأشباح» للفرنسي جوناتان ميّيه (1985): منظّمة سرّية تلاحق مجرمي الحرب السوريين، الهاربين إلى دول أوروبية عدّة للاختباء فيها. لكنّ حميد، أحد أبرز أعضائها، ناشطٌ في هذا المجال، وتحقيقاته تقوده إلى «ستراسبور» الفرنسية، على خطى جلاّده السابق (مستوحى من أحداث حقيقية). أمّا الختام، فمعقودٌ على فيلمٍ فرنسي آخر، بعنوان «حيوان» لإيما بينيّشتون (1988): تتدرّب نجمة بجدّية وقسوة كي تحقّق حلمها: الفوز بسباق «كامارغ» في دورته المقبلة، الذي يتحدّى فيه المتنافسون الثيرانَ في الساحة. لكنْ، بينما تجرى التحضيرات للموسم الجديد، تحدث حالات اختفاء مشبوهة تُثير قلق السكّان. سريعاً، تنتشر إشاعة مفادها أنّ هناك وحشاً برّياً يتجوّل في الأمكنة كلّها. في التظاهرة نفسها، هناك فيلمان عربيان أيضاً: «رفعت عيني للسما» للمصريّين ندى رياض وأيمن الأمير (مسابقة الأفلام الروائية الطويلة)، و«البحر البعيد» للفرنسي المغربي سعيد حميش بن العربي (عروض خاصة).

الأول (تشارك قطر في إنتاجه) يتناول واقعاً مصرياً يتمثّل بشابات، مُقيمات في قرية في جنوب مصر، يتمرّدن بتشكيلهنّ فرقة تعمل في «مسرح الشارع». كلّ واحدة منهنّ تحلم بأنْ تُصبح ممثلة أو راقصة أو مغنّية. معاً، يتحدّين عائلاتهنّ القبطية وسكّان المنطقة، بتقديم عروضٍ جريئة. مُصوّرٌ في أربعة أعوام، يتابع «فتيات النيل» (العنوان الفرنسي)، أو «حافة الأحلام» (العنوان الإنكليزي)، مسار هؤلاء الشابات، اللواتي يُصبحن نساءً راشدات.

أمّا الثاني (تُشارك قطر أيضاً في إنتاجه)، فيعاين حالة فردية متعلّقة بالهجرة: ببلوغه 27 عاماً، يهاجر نور بشكل سرّي إلى مرسيليا الفرنسية. مع أصدقائه، يكسب قوت عيشه بالاتّجار ببضائع صغيرة، وعلى نطاق ضيّق.

يعيش حياة هامشي. لكنّ لقاءه سيرج، الشرطيّ ذا الشخصية الجذّابة التي لا يُمكن التنبّوء بسلوكها ومسارها، يقلب حياته كلّياً، مع زوجته نعومي. بين عامي 1990 و2000، يعيش نور حبّاً، ويشيخ ويتمسّك بأحلامه.

مقالات أخرى على الموقع الالكتروني

■ مقالتان للزميل نديم جرجوره: ميريل ستريب مُكرَّمةً في مهرجان «كانّ»: أداءٌ باهرٌ (6 مايو 2024)، و«فلسطين ومصر في «كانّ 2024»: بحثٌ عن خلاص وحرية في عالم أرحب (10 مايو 2024). ■ مقالة للزميل محمد هاشم عبد السلام: «ملصقات مهرجان «كانّ» السينمائي: نوافذ صغيرة تطلّ على العالم» (2 مايو 2024).